

## الشاعر الجاهلي والوجود:

### دراسة فلسفية ظاهراتية(\*)

باسم إدريس قاسم(\*\*)

أستاذ الأدب الجاهلي في كلية الآداب، جامعة الموصل.

هذه الدراسة هي حصيلة خبرة أكثر من عشرين عاماً في قراءة الشعر الجاهلي ومُدارسته مع الطلبة والأساتذة في الجامعات العراقية. وعلى الرغم من أن نواتها في الأصل رسالتي للماجستير المقدمة إلى كلية الآداب في جامعة الموصل سنة ١٩٩٢، إلا أنني فيها غيّرت وحوّرت ونقّحت، وأضفت من كتابات وبحوث السنوات الجامعية التالية، مما نشرته في المجلات العراقية والعربية، لتستوي الدراسة على هيئتها الأخيرة.

تتخذ الدراسة من المنهج الظاهراتي منطلقاً فلسفياً لدراسة الشاعر العربي الجاهلي، للتعرف والبحث في طبيعة وجوده الإنساني، وما يمثله الشعر الجاهلي من وجوده هذا تاريخياً وفلسفياً وأدبياً ودينياً. فالظاهرة التي أردت دراستها فلسفياً في هذه الدراسة هي الشاعر الجاهلي ومدى تحقيقه لوجوده في الحياة التي عاشها في عصره. ولذلك سميت دراستي «الشاعر الجاهلي والوجود» ولم أرِدْ دراسة الشعر الجاهلي وتعامله مع الوجود الطبيعي الخارجي فيكون العنوان حينئذٍ «الشعر الجاهلي والوجود»؛ على الرغم من أن هذه الحالة الأخيرة هي متضمنة في موضوع الدراسة.

ولأن وجود هذا الشاعر قد تعاورته وغطّته تراكمات كثيرة من الرؤى العربية الإسلامية أولاً قديماً، ثم التصورات السلبية الاستشراقية الغربية الحديثة ثانياً، التي قاست طبيعة وجود هذا الشاعر ببذو العرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ثم إسقاطات الدراسات العربية النفسية والاجتماعية والوجودية والأسطورية والبنوية الحديثة والمعاصرة أخيراً؛ لذلك طمحت إلى التجرّد من هذه التأثيرات لأبحث في طبيعة وجود هذا الشاعر بموضوعية وحيادية فلسفية. فعمدت إلى المنهج الظاهراتي الذي يحقق لي هذه الحيادية والنظرة الذاتية الجديدة التي تستبطن الظاهر لتصل إلى الماهية التي تخفي وراء العيان الظاهري.

(\*) تمثل هذه الدراسة خلاصة الكتاب الذي صدر حديثاً عن مركز دراسات الوحدة العربية تحت العنوان نفسه (٢٨٨ ص).

basim\_idrees@yahoo.com

(\*\*) البريد الإلكتروني:

- يقوم المنهج الظاهراتي على التوغل فلسفياً في دراسة أية ظاهرة من ظاهرها إلى معرفة ماهيتها. والظاهرة في دراستي هذه هي الشاعر الجاهلي ووجوده ومحاولة التعرف فلسفياً إلى طبيعة وخصوصية هذا الوجود في ذلك العصر.

- ولبلوغ ذلك يعتمد المنهج الظاهراتي إلى تعليق الحكم المسبق على الظاهرة، أي إقصاء جميع الأحكام السابقة التاريخية والدينية والمعرفية وغيرها والنفاذ إلى الظاهرة نفسها لمعرفة ذاتياً بتجرد فلسفي. لذلك حاولت أن أستبعد أحكام الدراسات السابقة على الشاعر الجاهلي، العربية والاستشراقية، القديمة والحديثة، إلا ما اتخذته سنداً للنتائج الظاهراتية عنه.

- تقوم الظاهراتية على معرفة الظاهرة من عموميتها الخارجية إلى خصوصيتها الداخلية الذاتية، بسلسلة تدرّجية خلال ذلك من التصحيح والنقد للبداهات الأولى التي استقرت في الأذهان تاريخياً عن تلك الظاهرة. لذلك بدأت بدراسة الشاعر الجاهلي من عمومية كونه إنساناً عربياً وموقع وجوده في مسار هذا التاريخ العربي العام، ثم ظهوره شاعراً في مسار هذا التاريخ من أول انبثاق الشعر العربي إلى الوجود حتى اكتمال نضجه فنياً قبل الإسلام، ثم التوغل في خصوصية عقله الشعري وفلسفة شعره وصوره وما يمثله فلسفياً من وجوده، ثم ما يمثله الخارجي الطبيعي الذي أحاله إلى ذاتي في شعره؛ وكيف عاش حياته الذاتية في شعره وفي وجوده بذلك العصر.

**لا نستطيع أن نفهم خصوصية  
تمثيل أي فن من الفنون لوجود  
الإنسان في عصر ما إلا إذا عرفنا  
الحاجة الملحة لظهور ذلك الفن.**

- تتم دراسة الظاهرة بالحدس (الرؤية)  
الفلسفي. لذلك جعلت دراستي في كل مبحث من  
دراسة الشاعر الجاهلي تقوم على حدس ورؤية  
فلسفيين.

- يقوم هذا الحدس الفلسفي على مبدأ القصد  
الظاهراتي وهو توحد الدارس مع الظاهرة فلسفياً من أجل معرفتها ذاتياً.

- هذا الحدس الظاهراتي يستند إلى الخبرة الفلسفية المعيشية للذات من عالم الحياة، وليس إلى الخبرة التجريبية كما هو حال الدراسات السالفة النفسية والاجتماعية والأسطورية وغيرها.

- تقوم الظاهراتية أيضاً على العيان المقولي، أي سبر ما وراء العيان الحسي من الظاهرة. وهو ما تعرضت له من جوانب حسية كثيرة توقفت عندها الدراسات القديمة والحديثة، العربية والاستشراقية، ولم تتجاوزها وتتعرف إلى ما ورائها من جوانب فكرية ومعرفية ونفسية.

- تهتم الظاهراتية بتبيين آفاق الظاهرة، ومنها الأفق الخارجي وما يمثله من داخلية الظاهرة، وأفق الآخر، وهو ما يمثله الآخر للظاهرة، والأفق الزمني الذي يضع الظاهرة في أفقها الزمني وموقعها التاريخي. هذا ما سبرته من آفاق وجود الشاعر الجاهلي، مما يمثله الخارجي الطبيعي من وجوده، وما يمثله الآخر، وتحديد موقع أفقه الزمني وموقعه من التاريخ العربي بوصفه يمثل قمة نضج هذا التاريخ وحضارته وفكره قبل مجيء الإسلام بحيث مما تمثل كل ذلك في شعره وشاعريته ووجوده.

## أولاً: فكرة الوجود

أردت أن أحتكم في دراسة وجود الشاعر الجاهلي إلى فكرة واضحة ووافية ومحددة لمعنى «الوجود» وماهيته، لأقيس على وفقها طبيعة وجود الشاعر الجاهلي، وهل حقق هذا الوجود أم لا؟ فلم أجد بداً من أن ألوذ بالفلسفة لتحقيق ذلك. ولكن الفلسفة والفلاسفة لا يعطون معنى محدداً ووافياً للوجود، فلكل فلسفة وكل فيلسوف نظرة ورؤية للوجود تختلف عن الأخرى وتتسق مع طبيعة التشكيل الكلي لتلك الفلسفة، منذ العصور القديمة حتى الآن وعند مختلف الشعوب. ولكنني وجدت في الوجودية الألمانية الحديثة، وفي وجودية الفيلسوف هيدغر منها بخاصة، ما يحقق طموحي من تحديد مفهوم واضح وكلي ومحدد لمعنى تحقيق «الوجود» الإنساني.

ولكنني وجدت فلسفة هيدغر أيضاً - كونه فيلسوفاً وجودياً إنسانياً؛ أي يركز على الوجود الإنساني - قاصرة عن تحقيق طموحي في فكرة في الوجود، تشمل الوجود كله وتختبره بها، ومنها وجود غير الإنسان كالله والموجودات الأخرى والمعنويات والفنون كالشعر والأخلاقيات وغيرها؛ فعذلت في فكرة هيدغر بما يحقق ذلك، فعرضت فكرتي الفلسفية هذه المعدلة للوجود. ولذلك عرضت فكرة الوجود عند هيدغر بخاصة، والوجوديين بعامه، ثم ذكرت إضافتي وتعديلي على هذه الفكرة.

هيدغر هو أهم الفلاسفة في الوجودية الحديثة الذي حدّد فكرة ومفهوم «الوجود» تحديداً دقيقاً معتمداً الأصل اللغوي اللاتيني لهذه الكلمة مقيماً عليها أصول فلسفته. فأصل الفعل «يوجد» في اللاتينية وهو Existere مكون من مقطعين: ex ومعناه الخروج والانبثاق، و sistere ومعناه البقاء والسكون في عالم معيّن. فحدّد هيدغر لذلك فكرة ومعنى الوجود وفلسفته عنده اعتماداً على هذا الأصل بـ «الوقوف خارج الذات» الذي يعني به قدرة الذات على تجاوز نفسها دائماً وتجدها وإلقائها في حيز الممكن الأفضل، وعدم الثبات والسكون والوقوف على هيئة وحالة وجود واحدة الذي به موت الذات.

وإلى ذلك احتكم هيدغر وبعض الوجوديين في تحديد تحقيق وجود الموجودات من عدمه؛ فوجد أن الإنسان وحده الذي يصدق عليه تحديد مفهوم الوجود بإمكانية تجاوز ذاته دائماً، أما الموجودات الأخرى فهي إما موجودات لا نعرف كنه وجودها كالله والملائكة والعالم، وإما مجرد كائنات كالحيوانات والجمادات، وكلاهما لا يمتلك تجاوز ذاته باستمرار كالإنسان. لذلك خصّ هيدغر والوجوديون الوجود بالإنسان وحده. يسمي هيدغر هذا الوجود «الوجود الماهوي» أي أن الماهية الحقيقية لوجود الإنسان هي بتجاوز ذاته المستمر دائماً نحو الممكن، كما يسميه «الوجود الأصيل». فمن يحقق ذلك من الناس يحقق وجوده الماهوي والوجود الأصيل الذي هو المعيار لتحقيق الوجود، ومن لا يحقق ذلك لا يحقق وجوده ويعيش كائنًا فقط كما الحيوانات والجمادات، وهو ما يسميه «الوجود الزائف» مما سمّاه نيتشه إهانة وجود «القطيع».

وفي الوجود الفعلي الذي يعيشه الإنسان يضع هيدغر مصطلح «الوجود المتعيّن أو الآنيّة»، ويقصد به قياس وجود الموجود في أي آن من آنات وجوده وقياس تحقيقه لوجوده، بحسب

اقتربه أو ابتعاده من الوجود الماهوي. والوجود الآني عند هيدغر له معنيان: الأول، «الوجود هناك» أي أن الإنسان يجد نفسه ملقى في هذا الكون دون إرادة منه في كل ما هو حوله من ظروف؛ والثاني، «الوقوف هناك» أي ضرورة أن لا يبقى الإنسان مستسلماً لهذا الإلقاء في الكون فيعتمد إلى تجاوز نفسه وظروفه نحو الممكن ونحو تحقيق وجوده الماهوي وإنسانيته. وهذا ما يسميه هيدغر والوجوديون «العلو» أو «التعالى»؛ أي تجاوز الذات الفعلية والمستمر لذاتها نحو ما هو أسمى وأعظم من الوجود، مما يصل به نيتشه إلى الإنسان المتميز (السوبرمان).

ويؤكد هيدغر والوجوديون بعامة أن تحقيق الإنسان لوجوده مرتبط بالحرية؛ فالوجود والحرية عندهم متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر.

والوجود الإنساني الأصل الذي يمتلك هذه الحرية يسعى دائماً إلى بناء ذاته المتفردة وبجهد لتحقيق أناته الخاصة التي تخصه وحده ولا يشترك فيها معه أحد. وهذا ما سنجده جلياً واضحاً في تحقيق الشعراء الجاهليين لوجودهم الأصل المتفرد.

**أودع الشاعر الجاهلي كل حياته  
ووجوده وأحلامه وأحزانه  
وجمال عالمه الصحراوي الذي  
أحبه في عالم الشعر هذا.**

بعد ذلك عرضت فكرتي في الوجود التي أساسها فكرة هيدغر والوجوديين ولكنها تختلف عنه وعنهم في جوانب منها التأسيس اللغوي للوجود وقيام فلسفة الوجود عليه؛ ففي حين يؤصل هيدغر - كما ذكرت - مفهوم الوجود بصيغة «الوقوف خارج الذات» فيضيّق المفهوم ليحصره بالإنسان فقط، رأيت أن الأصل اللاتيني منفتح بالدلالات أكثر مما ضيقه به هيدغر فأصلته لذلك بصيغة «الخروج من البقاء»؛ أي الخروج والتفكك من البقاء في عالم معين تجد أية ذات إنسانية أو غيبية أو معنوية فكرية نفسها فيه إلى عالم آخر لها أفضل وأسمى وعدم التوقف والسكون على حالة واحدة. وبذلك شملت في فكرة الوجود بهذه الصيغة وجود الله والغيبيات، وكذلك المعنويات والأفكار والفنون كالأخلاق والشعر وغيرهما، فهذه الموجودات الفكرية أيضاً وجودها الخاص الذي يراوح أيضاً بين تحقيق وجودها أو عدم تحقيقه. وإذا كانت الفلسفة الوجودية تؤكد تحقيق الإنسان لوجوده الأصل في هذه الحياة فإنها لا تقيم أهمية كبيرة لانعكاس هذا الوجود في الآخرين؛ بل تؤكد، على الضد من ذلك، انعكاس وجود الآخر على وجودنا. لذلك وجدت في فكرة الفيلسوف الألماني والمثالي فيخته في ما يعرف بـ «تخارج الذات» ما يكمل برأيي تحقيق فكرة الوجود، وهو يقصد بها ضرورة تخارج الذات الداخلية المغلقة وتجليها للغير في ذات خارجية تكون مرآة عاكسة لداخليتها لتتعرف إليها بها فتمثل جانب المعرفة، من فن أو فكر أو عمل أو غير ذلك. وإذا كانت فكرة الوجودية تقوم على الوجود وتحقيقه، فوجدت - اعتماداً على فيخته - ضرورة أن ينعكس هذا الوجود بما يعكس المعرفة به من فن أو فكر أو غيرهما، وإلا ظل الوجود حبيس نفسه ولن يعرف في ما يتجلى فيه ويعرف به. فالشاعر الجاهلي مثلاً لا يكفينا دراسة وجوده ومدى تحقيقه له بمعزل عن دراسة ما انعكس فيه هذا الوجود من أخلاقياته وشعره وبطولاته وأعماله التي مجدّ نفسه بها، وكانت تمثل جانب المعرفة من وجوده.

## ثانياً: الإنسان العربي والصحراء (رؤية تاريخية)

تبدأ دراستي الظاهراتية للشاعر الجاهلي ووجوده بدراسة الإنسان الكائن منه وعلاقته ببيئته هذه الصحراء القاحلة التي وجد نفسه ملقى فيها رغماً عنه كما يرى هيدغر والوجوديون. وأول ظهور للعرب الشماليين الصحراويين على صفحة التاريخ كان نحو الألف الثاني قبل الميلاد مع تاريخ وجود أبيهم إسماعيل (عليه السلام) في مكة وما حولها. في هذا الزمن، كما يقول البريت، رُوِّض العربي الجمل ودخل به الصحراء فعاش فيها. وكثر أولاد اسماعيل وأحفاده في الصحراء، ومنهم أبناء معد بن عدنان الذي ترجع إليه أغلب القبائل العربية الشمالية كقضاعة وإياد وأنمار وربيعة ومضر. وأخذوا يغيرون من الصحراء على البابليين والآشوريين وغيرهم. وظهر اسمهم (العرب) على صفحة التاريخ نحو الألف الأول قبل الميلاد؛ ومعنى اسمهم مشتق من الصحراء وسكنائها. وهكذا وجدنا أن الصحراء أسبغت وجودها واسمها على وجود العربي فسَمَّته باسمها وخلعت عليه وجودها. فكان العربي مجرد كائن يحيا ويعيش وراء الكلا والماء ويقاتل ليبقى في قيد الحياة، ولم يكن له وجود متميز يرفعه فوق الكينونة. وهذا ما يفسر لنا صمت التاريخ عن أولئك العرب لألف وخمسمئة سنة تقريباً لا نعرف عن وجودهم شيئاً، لأنهم لم يعكسوا وجودهم في شيء نعرفهم به كما ذكرنا من فلسفة فيخته.

ونحو تاريخ الميلاد وبعده كانت القبائل العدنانية قد تضخمت كثيراً وانتشرت في الصحراء ونشب بينها القتال والحروب بسبب الماء والكلا. وزاد استعارة الحروب اضطراب القبائل القحطانية إلى الهجرة من اليمن إلى الصحراء لتعيش مع القبائل العدنانية فيها. فكانت الهجرات المتتالية للأزد، ثم المناذرة والغساسنة، ثم قبيلة طيء وغيرها، داخل الصحراء لتحتدم في الصراع مع القبائل العدنانية المتناحرة هي نفسها في ما بينها. وما زاد الحروب استعاراً نحو القرن الثاني للميلاد وبعده استخدامهم للخيال في حروبهم هذه بدل الجمال. فكان هذا الصراع مؤذناً لبداية إحساس الإنسان العربي بوجوده وظهوره على صفحة التاريخ. وفي حدود القرن الخامس للميلاد تغير مسار وجود الإنسان العربي من مرحلة الإحساس بالوجود إلى إثبات الوجود الأصيل المتميز المتفرد، وهي المرحلة التي وجدنا كليب وائل أفضل رمز وممثل لها. وتحولت الغاية من الحروب من الحصول على أفضل المراعي إلى جعلها وسيلة لإثبات الوجود المتفرد الأصيل الذي بدأ الناس يحسّون به في هذا العصر، والذي تجسد في بطولاتهم وأشعارهم وخطبهم وكرمهم وبقيّة أخلاقهم العربية الأصيلة التي ننظر إليها نحن والغربيون الآن بعين الإعجاب والانبهار والاحترام.

## ثالثاً: الشعر الجاهلي: الوجود والماهية

### ١ - الشعر العربي: من العدم إلى الوجود

يدرس هذا المبحث الإنسان العربي شاعراً، وكيف انبثق الشعر من العدم إلى الوجود عبر نحو ألف وخمسمئة سنة تقريباً. وقد وجدت أن أول إحساس لهذا العربي الصحراوي بالشعر يعود إلى نحو الألف الأول قبل الميلاد مع مضر بن نزار بن معد بن عدنان؛ فقد روى الثقاف ومنهم

أهل الحديث أن مضر أو غلاماً له سقط عن بعيره فانكسرت يده، فأخذ يتألم من وجع يده ويقول: وايداه، وايداه. فرأى الإبل انسجمت مع صوته وانسابت وانتظمت في سيرها، فعرف منذ ذلك الزمن ما سمي من غناء العرب بالحداء، وما عرف من شعر العرب بالرجز.

لكن العربي الأول لم يستخدم ذلك الغناء والشعر للتعبير عن وجوده، بل استخدمهما - وفقاً لما ذكرنا - من تغلب وجود الصحراء على وجوده في التغني بالصحراء، ذلك أنه استخدمهما في رعي الإبل للتخفيف من تعبته، وفي حفر الآبار، وفي الحروب، وفي السقي والزراعة، وفي ترقيص أطفاله، وغير ذلك من أغاني العمل. ومنذ ذلك الزمن البعيد حتى العصر الجاهلي القريب من الإسلام انبثقت وفق رؤيتي بعض البحور من الرجز القديم وهي: السريع والمنسرح والكامل والوافر والبسيط. وكان للعرب من الغناء ما يسمونه «السناد»؛ ومنه برأبي انبثقت البحور التالية: الرمل والمديد والخفيف. ولهم نوع ثالث من غنائهم يسمى «الهجج» ومنه انبثقت برأبي بحور الهزج والمتقارب والمتدارك.

أما أشهر غنائهم وأبدعه وأجمله عندهم وأعلقه بنفوسهم فهو الغناء الذي عرفوه بعد الميلاد بقرنين تقريباً وهو الغناء الجنابي أو الركباني أو المراثي، الذي يقوم على بحر الطويل خاصة. ومن اسمه (المراثي)، وتغنيهم به في النواح على قتلاهم، نستطيع أن نعرف الصلة بين بداية ظهور الشعر عندهم بهذا الغناء وزيادة الحروب - كما أسلفنا - نحو القرن الثاني للميلاد وبدء إحساس الإنسان العربي بوجوده. ثم ظهور الشعر فناً ناضجاً متكاملًا في القرن الخامس مع مهلهل الذي بكى به أخاه كليب وائل. ومع ظهور مهلهل وجيله تبدأ مرحلة إثبات الوجود الشعري، كما كان إثبات الوجود الإنساني المتفرد يتمثل بأخيه كليب.

## ٢ - الشعر الجاهلي: الماهية الفلسفية

ما الذي يمثله الشعر الجاهلي فلسفياً من وجود الشاعر؟ وكيف يحقق الشاعر وجوده بهذا الشعر؟ هذا هو مدار هذا البحث. ونحن لا نستطيع أن نفهم خصوصية تمثيل أي فن من الفنون لوجود الإنسان في عصر ما إلا إذا عرفنا الحاجة الملحة لظهور ذلك الفن، وذلك بتفهم ما يسميه الفيلسوف هيغل «حالة العالم»، وهي طبيعة الكينونة العامة للواقع الروحي الذي يعيشه أناس عصر ما. ونحن لو تمعنا في ما قاله الشعراء الجاهليون لوجدنا أن حالة الموت ومواجهته وكثرة الحروب وانتشار الجوع والقتل هي حالة العالم التي كانت تحكم كل فرد من أفراد ذلك المجتمع العربي الصحراوي، فكانت حالة عامة وذاتية في الوقت نفسه. لذلك نجد الشعراء الذين وصفوها وعانوها كانوا لا يعبرون عن أنفسهم فقط؛ بل عبروا عن ذات كل عربي ووجوده في هذه الصحراء، ولهذا مسّ الشعر شغاف قلوبهم وقال الشعراء ما في أنفس الناس أن يقولوه.

لقد أحس الشاعر الجاهلي أن الموت يطارده في كل لحظة من لحظات حياته، وأنه يرقبه أينما ذهب، وأن الإنسان محض وهم في وجوده في هذه الحياة؛ فإذا كان الآن موجوداً فهو بعد حين وغرة غير موجود، وأنه كما يقول هيدغر حديثاً «وجود للموت» أي أنه من أول وجوده مرهون بالموت وإليه. وفي مثل هذا الإحساس بالموت الذي أحس به الشاعر الجاهلي يتجه

الإنسان عادة إلى ثلاثة مسالك يسرب بها هذا الإحساس: **المسلك الأول** من يقنع نفسه أن حاله كحال بقية الناس في حتمية الموت فيلقي نفسه في كينونة القطيع ليسهو ويتغافل عن مواجهة الموت والعدم، وهذا مسلك من يعيشون حياة القطيع بالوجود الزائف والكينونة. **المسلك الثاني** هو أن يستسلم الإنسان كلياً للموت ويشعر بانعدام إرادته أمامه فيرضخ له خانعاً ذليلاً ويعيش حياته يائساً ضعيفاً مهزوماً يحاول الهروب من الموت بشتى أنواع اللذات واللهو والعبث. وهذا المسلك هو الذي فسرت به أكثر الدراسات الاستشراقية والعربية الحديثة والمعاصرة حياة الشاعر الجاهلي ووجوده، فصوّرتة مريضاً نفسياً مهزوماً هارباً مستسلماً للموت لا إرادة له أمامه. أما

**المسلك الثالث** الذي أجده يفسر وجود الشاعر الجاهلي فهو معاكس للمسلكين السابقين، وهو اتخاذ موقف المواجهة والتحدي للموت واليقين من سمو الوجود الذاتي لذلك الإنسان والمحفز له لتحقيق وجوده الأصيل. وهذا المسلك هو الذي يفسر الماهية الفلسفية للشعر الجاهلي؛ ذلك أن الشاعر الجاهلي، وبسبب تأزم شعوره بأنه «وجود للموت»، ألقى وجوده الوقتي الزائل الجميل في وجود ممكن جميل وأثيري لازماني خالد لا يزول ولا يملك الموت إليه سبيلاً؛ وهو عالم الشعر ووجوده ليضمن له الخلود والبقاء، وليحقق به وجوده

**إن الصورة في الشعر الجاهلي ليست مجرد تزيين أو تلاعب أو تفنن في كيفية صوغها بالتشبيه أو الاستعارة، أو غير ذلك [...] كانت هذه الصورة طريقة الشاعر في التفكير بوجوده وتغيير هذا الوجود.**

الأصيل، شكلاً من أشكال التناسخ الوجودي الفلسفي الحقيقي لا المجازي. لذلك أودع الشاعر الجاهلي كل حياته ووجوده وأحلامه وأحزانه وجمال عالمه الصحراوي الذي أحبه في عالم الشعر هذا. كما أودع فيه روحه في الكلمات والإيقاع. فنحن حين نقرأ شعر امرئ القيس نحس بروحه بكلماته، ونحس باختلاف هذه الروح عن روح شعر زهير أو النابغة المتلبّسة بكلماتهما. وهذا ما أكدّه الفيلسوف «كانت» من تجسّد الروح في الفن ولا سيّما عند عباقرة الفن العظماء. كما جسّد الشاعر الجاهلي حياته ونقلها إلى الحياة في الوجود الشعري، هذه الحياة التي بكأها، لأن ظهور الشعر كان بكاء على الحياة كما قلنا. هذه الحياة التي تختلف عنها في الواقع، لذلك قيل إنها لا تعكس واقعه، وقيل إنه يكذب في شعره؛ والحق أنه نقل الناس في ذلك العصر إلى هذه الحياة التي أودعها في الوجود الشعري لكي ينقلهم إلى وجود جديد أفضل وأسمى وأحسن.

ومن الماهيات الفلسفية الأخرى للشعر الجاهلي من وجود الشاعر أن الشاعر حاول بشعره أن يجمّد الزمن الذي كان يرى فيه هذا الجمال والجلال الوقتي الزائل للوجود الطبيعي مما حوله، فألقاه في قصائده وخلّد تلك المشاهد الجميلة والجليلة في عالمه الشعري.

الماهية الفلسفية الأخرى أن الشعر كان وسيلة الشاعر الجاهلي لقهر شعوره بالاغتراب والانفصال عن الوجود وعن الآخرين وعن الطبيعة بالموت. فحقق بالشعر التوحد مع الوجود والآخرين والطبيعة كما سنفصل ذلك في المبحث الثالث.

والماهية الفلسفية الأخرى أن الشعر في ذاته هو وجود حرية يستطيع به الشاعر أن يقهر تأزم ذاته ووجوده بحرية القول والبوح بما يريد.

كما أن الشعر يحمل ماهية فلسفية أخرى تتمثل بكونه أول مرحلة من مراحل معرفة الإنسان لوجوده واكتشافه له ومحاولة تغيير هذا الوجود نحو وجود أفضل، لذلك كان الخليفة عمر بن الخطاب يرى أن الشعر أول علم ومعرفة للعرب، وهو ما يؤكد الفيلسوف فيكو حديثاً.

### ٣ - الوجود الشعري: الماهية الفنية

لقد قلت في بداية هذه الدراسة إن فكرة الوجود محكومة ومشروطة بفكرة «الخروج من البقاء»، وما فعله الشعراء الجاهليون - منذ مهلهل - هو هذا الخروج الوجودي والفكري من واقعهم الحقيقي المؤلم الذي يعيشونه، ومن البقاء فيه، إلى رسم واقع جديد للموجودات والأشياء يحثون الناس عليه ويدعونهم إليه؛ فحدث شد بين الواقع الفعلي للناس في ذلك العصر والواقع الشعري الذي كان طموح الناس أن يصلوا إليه، فحقق الشاعر بذلك الوجود الشعري. أما كيف يبني هذا الوجود الشعري؟ فهو بالتملص من نثرية التفكير وواقعية الحياة وظاهرية الوجود وركود الإحساس بالأشياء إلى الشعرية في التفكير وإمكان الحياة وكشف ماهية الوجود والموجودات والتأمل والتفكير فيها ودقة الشعور والإحساس بها.

إن الشعراء الأبطال الجاهليين  
إذا رأوا مظهراً جليلاً للطبيعة  
لا يبتعدون عنه، بل يقتربون  
منه ليعرفوا سر جلاله  
فينتزعونه منه ليضفوه على  
أنفسهم ووجودهم.

ويمكن ضرب أمثلة من كل ذلك من أشعار الجاهليين التي تنبئ عن التفكير بالموجودات ومحاولة التعرف إلى كنه وجودها وطبيعته. هذا الوجود الشعري يقاس بمقياسين: الأول طبيعة الاختلاف ومدى الانزياح عن الواقع؛ والثاني هو طبيعة التمثل الشعري لدى كل شاعر مما يتمثل بما يرسمه الخيال من وجود الموجودات. وعلى هذا، فليس الوجود الشعري المتمثل بالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز وغيرها يقوم على التصرف اللغوي، كما يرى البلاغيون قديماً والبنويون حديثاً، ولكنه يقوم على التأمل الفكري والوجودي الذي تعكسه اللغة بالحدس والتمثل الشعري. ولأجل ذلك نرى أن امرأ القيس كان أكثر الشعراء تأملاً للوجود، إذ نجد ذلك واضحاً في شعره، على العكس مما تراه الدراسات قديمة وحديثة من أنه شاعر لاه عابث همُّ المرأة فقط.

### رابعاً: المعرفة الشعرية في العصر الجاهلي

#### ١ - طفولة العقل الشعري ورؤية الوجود

توغلاً وإتماماً للموضوع أتناول هنا كيف يشكل الشاعر الوجود الشعري عن طريق الإحساس المرهف بالأشياء وطبيعة رؤيته الفكرية للوجود وخصوصية معرفته الشعرية وتميز



عقله الشعري في معرفة واقعه والموجودات. إن الشعر يقوم على ركنين أساسيين: الركن الأول، الإحساس وتميز هذا الإحساس المرهف والدقيق بوجود الشاعر وبالموجودات التي تشاركه وجوده، ويمثل الإحساس جانب الشعور؛ والركن الثاني الرؤية وما تختص به هذه الرؤية الشعرية من تميز خاص بكل شاعر يرسم لنفسه ولغيره من الموجودات واقعاً جمالياً جديداً يغير به الواقع الذي يعيشه، وتمثل الرؤية جانب الفكر من الشعر، وكلا الإحساس والرؤية وجهان لورقة واحدة في تشكيل الشعر.

يمثل إحساس الشاعر الأصيل بالأشياء الركن الجمالي والمعرفي الأكبر من الشعرية، وتُضرب أمثلة لهذا الإحساس المرهف من أشعار الجاهليين. يشترك العقل الشعري مع العقل الطفولي في الإحساس من ثلاثة وجوه: الأول، أن الشاعر كالطفل يكون مرهف الإحساس بالأشياء يريد أن يتعرف إليها من جديد بنفسه وكأنه لا يعرفها؛ والثاني، أن الشاعر كالطفل يعتمد على هذا الإحساس في تشكيل معرفته الخاصة بهذه الأشياء التي تختلف عن المعرفة العامة لكل الناس. الثالث، أن كلاً من الشاعر والطفل يعتمد على هذا الإحساس سبيلاً إلى التعرف الذاتي الجديد إلى الوجود. إن الشاعر في إحساسه الجديد بالأشياء يشكّلها من هذا الإحساس ممزوجة بواقعها ليتكوّن منهما نموذج كما يسميه روجيه غارودي يجمع بين الشيء الخارجي وإحساس الشاعر به. كما تتكون الرؤية الشعرية من الرؤية الفكرية للشاعر عن الشيء وواقع ذلك الشيء الخارجي، ليتكون منهما النموذج الرؤيوي. إن الإحساس والرؤية الجديدين لواقع الأشياء والموجودات في الشعر الجاهلي غيرا واقعها إلى واقع جديد هو الواقع والوجود والعالم الشعري الذي يتسم بالجمال والجلال معاً مما أحببناه في هذا الشعر.

## ٢ - فلسفة الصورة الشعرية

كيف شكل الشاعر الجاهلي واقعاً جديداً للوجود دعا الناس إليه؟ إن سبيله في ذلك هو التصوير الشعري. إن الصورة في الشعر الجاهلي ليست مجرد تزيين أو تلاعب أو تفنن في كيفية صوغها بالتشبيه أو الاستعارة، أو غير ذلك كما يراها القدماء وأكثر المحدثين، بل كانت هذه الصورة طريقة الشاعر في التفكير بوجوده وتغيير هذا الوجود. الشعر كما يقول بيلينسكي هو تفكير عن طريق الصور، كما هو كذلك في الرسم والنحت والعمارة. هذا النوع الصوري من التفكير غريب عن تفكيرنا العلمي المباشر بالأشياء، والشعر في ذلك كالحلم تماماً؛ فالحلم أيضاً تفكير عن طريق الصور غير المترابطة في الأغلب، ولكن وراءها ما يجمع خيط هذه الصور. ونحتاج إلى تفسير صور الحلم المتفرقة لنعرف ما وراءها من فكر وإحساس. كذلك هو الشعر الجاهلي الذي تحتاج لغته الصورية الحلمية هذه إلى تفسير وتأويل لكي نتعرف إلى ما وراء ما يجمع هذه الصور بالذات دون غيرها مما أثار الشاعر في موضوع شعري معين. وقد عمدت إلى تفسير وتأويل نماذج من هذه الصور الشعرية في بعض أشعار الجاهليين لنعرف كيف تمثل الصورة تفكيراً في الوجود مما يمثل فلسفة وجودها في الشعر الجاهلي.

## خامساً: العالم الشعري الجاهلي: الجمال والجلال

### ١ - الغنائية والملحمية

نتعرف هنا إلى ما يمثله الخارجي والآخر من ذاتية وجود هذا الشاعر وداخليته العميقة. لذلك عرضنا أولاً لدراسة طبيعة الشعر الجاهلي بين الغنائية والملحمية، أي هل هذا الشعر غنائي ينفث الأحاسيس الداخلية فقط أم ملحمي أيضاً يتعرض للخارجي ممزوجاً بذاته الغنائية؟

وليس الهدف هنا دراسة وجود الغنائية أو الملحمية في هذا الشعر لذاتهما، ولكن لما لذلك من أهمية في كون الشاعر الجاهلي ذاتياً يهتم بنفسه فقط أم موضوعياً يهتم بغيره من الناس والموجودات؟ وكيف ينعكس ذلك على جمال وجلال هذه الذات الشاعرة. وقد وجدت أن بعض هذا الشعر غنائي وبعضه ملحمي، لكن الأعم الأغلب منه يجمع في جمال وجلال بين الغنائية والملحمية؛ فالشاعر الجاهلي لا يتحدث عن نفسه فقط من خلال شعره، بل عن كل إنسان عربي يعاني ما يعانيه الشاعر؛ كما لا يتحدث عن غيره إلا من خلال ذاته. لذلك كان الشعر الجاهلي كما يقول علماءنا الأوائل «ديوان العرب» يمثل حياتهم كلها ووجودهم القومي وبيئتهم وآمالهم وأحلامهم وحروبهم وطبائعهم.

إن الأخلاق عموماً في الشعر الجاهلي وليس مبدأ الشرف فقط كانت أخلاقاً جمالية حرة وليست عرفية تقليدية، لذلك اجترح كل بطل وشاعر جاهلي أخلاقاً خاصة به وشخصية متفردة متميزة من غيره.

### ٢ - الطبيعة في العالم الشعري الجاهلي

نتناول هنا العلاقة الجدلية بين الشاعر الجاهلي والطبيعة الخارجية في جمالها وجلال مظاهرها. وقد اختلفت الفلسفات في مكنن الإحساس بالجمال والجلال لدى الإنسان: هل الجمال والجلال ينبعان من إحساس الإنسان بهما، أم هما مظهران خارجيان يفرضان نفسيهما على وعي الإنسان؟ وأنا أؤيد الفلسفة التي تقول إن الجمال والجلال مفهومان ذاتيان لا وجود لهما خارج وعي الإنسان. فليس ثمة جميل في ذاته ولا جليل في ذاته إلا داخل هذا الوعي، ولكن المنبع يختلف - في رأبي - بينهما، إذ إن منبع الجمال ذاتي يعتمد على الذات الجميلة المرفهة الإحساس بالجمال كما هو حال الشاعر الجاهلي؛ وأما الجلال فمنبعه خارجي، أي أن الشيء الجليل هو الذي يفرض نفسه على الإنسان ويرغمه على الشعور بعظمته وجلاله وضآلة الإنسان أمامه. وأكثر الناس يقفون مشدوهين أمام الجلال الطبيعي خائفين مرعوبين، أما الشعراء الجاهليون فكانوا يعجبون بهذا الجلال ويواجهونه ويرون أنفسهم ووجودهم أكثر جلالاً من الجلال الطبيعي، فتراهم يتحدثون الصحراء المهيبة نهاراً أو ليلاً بقطعهم لها منفردين، كما يعجبهم منظر السيول والعواصف والأمطار المهلكة فيخرجون متعرضين لهذه المظاهر الجليّة،

كما يواجهون الحيوانات المفترسة معجبين بجراتها وشجاعتها مسبغين صفاتها على وجودهم البطولي الجليل.

إن الشعراء الأبطال الجاهليين إذا رأوا مظهراً جليلاً للطبيعة لا يبتعدون عنه، بل يقتربون منه ليعرفوا سر جلاله فينتزعونه منه ليضفوه على أنفسهم ووجودهم. من جهة أخرى كان إحساس هؤلاء الشعراء بالجمال الطبيعي في الصحراء انعكاساً لشعورهم بوجودهم الوقتي الزائل الذي هو «وجود للموت»، فواجهوا الموت بالإحساس بجمال الحياة ومحاولة التوحد مع موجودات الطبيعة جمالاً وجلالاً.

### ٣ - الحياة في العالم الشعري الجاهلي

ننتقل إلى البحث في العلاقة الجدلية بين وجود الشاعر الجاهلي ووجود الآخر الإنساني الذي هو ألقى بالذات الشاعرة من الخارجي الطبيعي، وهو كما قلت سابقاً يمثل جانب معرفة درجة تحقيق الوجود للشاعر الجاهلي، فكلما عكس الشاعر وجوده في هذا الآخر من فقير أو ضعيف، أو أرملة أو أسير أو خائف، أو امرأة أحبها أو أمّ احترمها، أو أخ أو أخت تعلق بهما، شعر بتحقيق وجوده السامي. وبهؤلاء وغيرهم يرتسم الوجود الحقيقي عند الشاعر الجاهلي وتنعكس معرفة الأفضل وجوداً بين أبطال وفرسان وشعراء العرب.

وأستطيع أن أقول إن ما يختصر الحياة الجاهلية في علاقة الشاعر بالآخر هو الحب، وهو الذي لا يراود منه رد جميل أو فضل أو منفعة أو مصلحة. إنه معرفة بقدرة الذات المحبة على العطاء الكبير وإيمانها بوجودها، لا تنتظر مقابلاً لذلك. الحب هو حرية وجمال للذات سواء كان نحو امرأة أو رجل. والحب يقوم على الشعور بالواجب الذاتي والمسؤولية الوجودية الخالصة من الغرض والمنفعة والمردودات.

هكذا كان يحس الشاعر الجاهلي تجاه الحبيبة أمّاً أو أختاً أو زوجة أو حبيبة، وتجاه الفقير واللاجئ الفزع والأسير والمرأة الضعيفة. هذا الحب عند الشعراء الجاهليين بأبهى صورته نجده يتمثل بمبدأ «الشرف» الذي يتمحور حول شخصية البطل. فكل ما يمس هذه الشخصية ووجودها هو مساس بشرف البطل الذي يقوم على إحساس عميق بتحقيق أسمى وجود. إن الأخلاق عموماً في الشعر الجاهلي وليس مبدأ الشرف فقط كانت أخلاقاً جمالية حرة وليست عرفية تقليدية، لذلك اجترح كل بطل وشاعر جاهلي أخلاقاً خاصة به وشخصية متفردة متميزة من غيره: فهذا بطلٌ عبْدٌ كعنتر، وذلك بطل نبيل كمهلhel وعمرو بن كلثوم، وآخر كريم كحاتم الطائي، وآخر فقير صعلوك كتأبط شراً، وغيره نبيل صعلوك كعروة بن الورد، وآخر حكيم كقيس بن ساعدة وزهير بن أبي سلمى.

إن هؤلاء الشعراء الذين حققوا أروع صور الوجود الإنساني هم الذين رسموا حضارة ذلك العصر، وهم الذين مهدوا بهذه الأخلاق الجميلة الحرة لمجيء الإسلام. وبذلك نفهم قول أبي عمرو بن العلاء: كانت الشعراء عند العرب في الجاهلية بمنزلة الأنبياء في الأمم □